بين السياسة والأدب :

انجلترا فى مرآة حافظ

للشيخ محمد رجب البيومى

كشر الشر عن أنيابه ، وبدت بريطانيا للعالم أجمع فى صورة مخزية منكرة ، فهى تهدر على الملأ حقوق الإنسان ، وتئد الحرية القومية بما تستطيع من قوة وجبروت ، ولولا أن وجدت مصر من مجلس الأمن منبراً تذيع عليه فظائع الاستعمار ، وشنائع الاحتلال ، لالتبس الحق بالباطل الصراح ولوُجدَ فى الناس من يغتر بتمويه إنجلترا الكاذب ، ويصدق ما تحلمه عن نفسها من حلل النزاهة والوفاء .

ولقد مددت يدى إلى ديوان حافظ إبراهيم لأطالع فى هذه الآونة الحرجة ما سبق أن هتف به شاعر النيل فى أذن هذه الدولة الصماء ، ولأشهد فى مرآة شعره صورتها الصادقة التى رسمها الشاعر الكبير ، ومما حمدت الله عليه أن وجدت هذه المجوز الشوهاء قد بدت كالحة عابسة تبعث فى النفس اشمئزازاً وفى الصدر انقباضاً حتى إنك لا تستطيع — مهما تجلدت — أن تديم النظر إليها بضع لحظات متواليات !!

والحق أن شاعر النيل كان ذا سلاح باتر ضرب به رقبة إنجلترا ضربات متلاحقة ، وشهره فى وجه الاستعمار مبارزاً مصاولا ، وما زال يواصل كفاحه الدائب ، ونضاله المستميت ، حتى تيقظ الشعور الهاجع ، وتنبه الإحساس الغافل ، فهبت مصر جميعها تثور للكرامة الذبيحة ، وتثأر للحرية الجريحة ، وهاهى ذى تواصل ثوراتها الصاخبة فى قوة وإيمان حتى تنقشع السحب وتتبدد الظلمات .

أما كيف استطاع الشاعر أن يؤدى رسالته على وجهها الصحيح ، فهذا ما سأبسط أسبابه القراء فى جلاء ووضوح —

* * *

نشأ حافظ رحمه الله تواقاً للأدب ، حريصاً على التحليق فى أجوائه الشامخة . وكان البارودى قد نال من نباهة الذكر ، وبعد الصيت ما جعل شاعر النيل يتخذه مثلا أعلى فى الحياة ، وإن كان سامى قد ركز بناء مجده على البلاغة والفروسية ، فإن حافظ يستطيع أن يملك زمام البيان باطلاعه المتواصل ، كما يقدر على أدّ أهل العَزْم يجتنى العزائمْ
ويجتنى على أدّ الكرامْ المكارمْ

وقول شوقى فى الأزهر ، يصير :

اوم بِمّ الدنيه وسلّم عَ الأزهر
وشّ على ادّن الزمان الجُوهر[1]

بدلا من :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

و :

قم فى فم الدنيا وحىّ الأزهرا وانثر على سمع الزمان الجوهرا

ولا شك أن هذه الترجمة (أجدر أن تسترق القلوب) — كما قال الأستاذ أبو حديد بك فى تقريره .

وعندئذ تطبع الرسالة أربعة آلاف فقط ، وأخبار اليوم عشرة آلاف ، وينشأ فى كل بلدة جريدة صغيرة تنطق بلسان أهلها ، ولا يبعد أن تشتد الحماسة لهذه اللغات كما اشتدت بتركيا الجديدة الحماسة للسانها ، فيؤذن بها على المنائر ، ويخطب بها على المنابر ، ويترجم القرآن إلى كل واحدة منها .

وعندئذ لا تستطيع الدول العربية أن تجتمع فى جامعة ، ولا أن تتحد فى شعور ، ولا أن تسوق جيوشها إلى فلسطين موحدة القيادة ، لأن الصلة الوحيدة بينها هى هذه العربية ، فإن انقطعت لم يصل بينها شىء ، ولا الدين ، لأنها إن ذهبت العربية ذهب معها القرآن فلم يبق دين .

وبعد فلن يكون شىء من هذا ، ولو قال به المجمع (ولن يفعل) لما سمع منه أحد ، لكان القرآن من هذه العربية ، ولأن الله تكفل بحفظ القرآن ، ولكنا أردنا أن نسلى القراء فى أيام العيد التى لا عمل فيها يشغلهم كما أراد الأستاذ أبو حديد أن يسلى أعضاء المجمع ، الذين جعل الله أيامهم كلها ... أعياداً ...

(القاهرة) على الطنطاوى

(١) هنا ... فإذا أخذ بالاقتراح الثانى ، وكتبناها بالحروف اللاتينية ؟

على الالتحاق بالمدرسة الحربية ليكون فارس الحومة ، وقائد الكتيبة ، ومن هنا ترك الشاعر المحاماة ، والتحق بالمدرسة الحربية ، وإن أمله ليصور إليه أنه سيكون في يوم من الأيام خليفة لرب السيف والقلم محمود سامي البارودي ! !

ظن حافظ أنه سيستفيد من المدرسة الجديدة استفادة يخدم بها وطنه المريض ، ولكن صدره قد انقبض في حسرة وغيظ إذ رأى بعينيه أن المستر براين الإنكليزي قد صفد المدرسة بأغلال وثيقة من الذل والعبودية ، فلا يدرس بها غير التمرينات الآلية التي لا تنشىء جيشاً ، ولا ترفع أمة ، أضف إلى ذلك ما كان يبديه القائم بأعمال المدرسة من ازدراء بالغ للعقلية المصرية واحتقار شديد للطلبة المنتسبين ، مما جعل الشاعر يؤمن في قرارة نفسه — عن مشاهدة شخصية — أن الإنجليز جميعاً من هذا الطراز الدخيل ، فهم يضمرون السوء للشعب ، ويهوون به إلى أسفل دركات الانحطاط .

خرج حافظ من المدرسة بعد انتهاء سنواتها التعليمية ثائراً ناقماً ، وما ظنك بشاعر مرهف الإحساس ، يرى أعداءه الألداء يتحكمون في أمته أبشع تحكم ، والشعب سادر في غفلته فلا يكاد يفكر في إزالة الكابوس الجاثم فوق صدره ؟ وكأن الظروف التي جمعت حافظاً بفريق من المستعمرين في المدرسة الحربية قد هيأت له أن يعيش في جوهم المريض مرة ثانية ، فقد سافر إلى السودان في الحملة العسكرية التي ذهبت من مصر بقيادة اللورد كتشنر لاسترجاعه من أيدي الثائرين ، وكان في النهاية ما خاف حافظ أن يكون ، فقد اهتبلت إنجلترا الفرصة ، ورفعت عليها الإنجليزي مع العلم المصري على مدينة الخرطوم ، ومن ثم بدأ الشاعر يخط الصحيفة الأولى في كتاب نضاله السياسي فقد أرسل اللحن الأول من قيثارته الحزينة ، يندد بخيانة الإنجليز وينبه الشعب المصري إلى ما يهدده من الخطر الداهم بعد استلاب السودان ، وذلك إذ يقول

رويدك حتى يخفق الخلصان ... وننظر ما يجري به الفتيان
فما مصر كالسودان لقمة جائع ... ولكنها مرهونة لأوان
أرى مصر والسودان والهند واحداً
بها اللورد والفيكنت يستبقان

وأكبر ظني أن يوم جلائهم ... ويوم نشور الخلق مقترنان

وطبيعي أن يبث الشعور الوطني في زملائه الضباط ، فيؤلف منهم زمرة تناوىء الغاصبين ، وتتمرد على قيادتهم الغاشمة . ولم يلبث كتشنر أن وقف على حركته الوطنية ، فتربص به الدوائر ، ونصب له الكايد الحائلة ، وإذ ذاك لجأ الشاعر إلى أستاذه الإمام ، فكتب إليه من خطاب طويل « ولقد قعدت همة النجمين ، وقصرت يد الجديدين ، عن إزالة ما في نفس ذلك الجبار العنيد (يريد كتشنر) فقد نما غيظ ضغنه عليّ ، وبدرت بوادر السوء منه إلى فأصبحت كما سر العدو وساء الحميم ... » وكأن الله عز وجل قد أراد الخلاص للشاعر من أقرب طريق فأحيل إلى الاستيداع ، وغادر الخرطوم إلى القاهرة ، بعد أن تكفل وطنيته العسكرية وضاقت به الميس في وجهه ، ولم يغير الشعر صديقاً وفياً ، يبثه نجواه ، ويستطلعه خبيئة سره إذ يقول :

سعيت إلى أن كدت أنتعل الدما ... وعدت وما أعقبت إلا التندما
لحا الله عهد القاسطين الذي به ... تهدم من بنيانها ما تهدما
إذا شئت أن تلقى السعادة بينهم ... فلا تك مصرياً ولا تك مسلماً
سلام على الدنيا سلام مودع ... رأى في ظلام القبر أنساً ومغنما

وواضح أن اختلاط الشاعر بالمحتلين فترتين متعاقبتين قد حول صدره أتوناً ملتهباً يشتعل بالغيظ ، فهو وحده بين شعرائنا السياسيين ، قد لمس عن كثب شنائع الاحتلال ، ولكنه اضطر مرغماً أن يكبت عواطفه — وقتاما — غب قدومه إلى القاهرة كيلا يقف المعتمد البريطاني في وجهه وهو يبحث عن عمل حكومي يرتزق منه ؛ وأنى للشاعر أن يصبر على الضيم والذلة ، والشعب في شر حاله ، تنتهب أمواله ، وتغتصب خيراته ، فلا أقل إذن من أن يواسيه بعزاء دامع يفصح عن إحساسه ، وينطق عن شعوره ، كأن يقول :

أيشتكي الفقر غادينا ورائحنا ... ونحن نمشي على أرض من الذهب
والقوم في مصر كالإسفنج قد ظفرت
بالماء لم يتركوا ضرعاً لمحتلب
فقد غدت مصر في حال إذا ذكرت
جادت جفوني لها باللؤلؤ الرطب
إذا نطقت فقاع السجن متكأ ... وإن سكت فإن النفس لم تطب

وقد رأى حافظ أن يتوجه في محنته إلى الخديوي ، فيخلع عليه برود ضافية من مديحه الرائع عسى أن ينقذه من وهدة التعطل والبطالة ، ولكن مدائحه الرنانة قد تلاشت في مهب

الريح ، ومضى الشاعر يطرق أبواب العمل باباً باباً ، والأيام تمر ثقيلة بطيئة في غير طائل ، والحاجة ماسة والحظ شحيح !!

ويشاء الله أن ييأس من العمل الحكومي يأساً تاماً ، فينقلب إلى ثائر هائج ، يحارب الاستعمار بما في براعه من قوة وبيان ، وهنا تثن القيثارة الحزينة ، فتهز الأوتار هزاً عنيفاً ، وتخرج الصحف على الشعب ملتهبة بزفرات حافظ ، فلا تكاد تمر بها الأعين القارئة ، حتى تشعل جمر الغضب في الصدور ، وينظر القراء فيجدون مشاعرهم الكظيمة مبسوطة في شعر حافظ السياسي ، فيتغنون به في مجالسهم . وينشدونه في الغدو والرواح حتى أيقظ الهمم الغافية ، وأضاء العقول الدامسة ، فهب الشعب يؤدي واجبه الوطني — إزاء الغاصبين — بقدر ما يستطيع

على أن حافظاً كان يلمح بصيص الأمل يلوح له في الاعتصام بحبل الدولة العثمانية ، فهي المملكة الإسلامية التي تتجه إليها أنظار المخلصين من أبناء العقيدة المحمدية ، ومهما قيل عن بني الخلفاء فهم أهون بكثير من أعداء اللغة والدين والوطن ، لذلك كان الشاعر يمدح سلاطين تركيا بوازع من دينه وعقيدته ، ويسيد بتاريخهم المديد كيلا ينخدع الشعب بدعاية بريطانيا الجوفاء ثم هو في مديحه لآل عثمان يقصد دائماً إلى هدفه الأصيل ، فينبه الخليفة إلى أقاصي الغرب الخاتلة ، ويحذر الشرق من الاستكانة والخنوع ، كأن يقول في عيد تأسيس الدولة العلية .

فياشرق إن الغرب إن لان أو قسا

ففيه من الصهباء طبع مذوب

تخف بأسها في الرأس والرأس تصطلي

وخف ضعفها في الكأس والكأس تطرب

ويا غرب إن الدهر يطفو بأهله ويطويه تيار القضاء فيرسب

أراك مقر الطامعين كأنما

على كل عرش من عروشك أشعب

وإذا كان مصطفى كامل قد أتخذ من حادثة دنشواي دليلا قويا يستند إليه في كفاحه خارج مصر ، فإن شاعر النيل قد شهر هذا السلاح بعينه ليحارب به الأعداء في الداخل . فقد نظم قصائد عديدة مال فيها إلى السلاسة والوضوح . ليفهمها الشعب المصري عن بكرة أبيه ، وقد مثل فيها المأساة الدامية تمثيلا يستدر الدموع ويشمل الأفئدة ، ودونك بعض ما يقول :

حسبوا النفوس من الحمام بديلة فتسابقوا في صيدهن وصوبوا

والمستشعار مفاخر برجاله ومعاجز ومناجز ومغرب

يختال في أنحائها متبسما والدمع حول ركابه يتصبب

رفقاً عميد الدولتين بأمة ضاق الرجاء بها وعز المطلب

إن أرهقوا صيادكم فلعلهم للقوت لا للمسلمين تعصبوا

جلدوا ولو منيتهم لتعلقوا بحبال من جلدوا ولم يتهيبوا

شنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا بلظى سياط الجالدين ورحبوا

أو كلما باح الحزين بأنة أمست إلى معنى التعصب تنسب

طاحوا بأربعة فأردوا خامساً هو خير ما يرجو العميد ويطلب

حب يحاول غرسه في أنفس يجني بغرسها الثناء الطيب

ولقد كان لهذه القصيدة دوي هائل في المجتمع المصري ، فقد عارضها كثير من الشعراء ، وبرزت المقالات السياسية مشتملة بزفرات من أبياتها الدامعة ، مما شجع شاعر النيل على المضي في سبيله ، فوقف لكرومر الطاغية بالمرصاد يحاسبه الحساب العسير في قواف تصرخ من الألم والرعب ، وما كاد اللورد يصدر تقريره الخادع عما قدمه للأمة المصرية من إصلاح ورفاهية ، ليبدو في صورة المنظم البريء حتى هجم الشاعر على مرائه الكاذب ، فنقده بأسلوبه الرائع وصاح في وجهه يقول :

تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى وأن أصبح المصري حراً منعما

إذا أخصبت أرض وأجدب أهلها

فلا أطلعت نبتاً ولا جادها السما

عملتم على عز الجماد وذلنا فأغليتمو طيناً وأرخصتمو دما

تهش إلى الدينار حتى إذا مشى به ربه في السوق ألفاه درهما

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت

حواشيه حتى صار ظلماً منظما

وبعد لأي رأت الحكومة البريطانية أن تدهن الشعب المصري فاستدعت جبارها العنيد إلى غير رجعة ، وهب حافظ يشيعه بقصيدة فاضحة ، فصلت آثامه المخزية واحدة وراء واحدة حتى ليجوز للمؤرخ المنصف أن يذكرها وحدها كسجل حافل بآثام المعتمد البريطاني ، فقد تعرض فيها الشاعر إلى مواقف كرومر العدائية من الدين الإسلامي ، ومناصرته للحركة التبشيرية المسيحية ، ثم دلف إلى الشركات الأجنبية التي بثها اللورد في مختلف الجهات الأجنبية ، تمتص الدماء ، وتستنزف القوى ،